التّوق إلى الوطن الأمّ في الأدب الإسلامي

أ.م.د. حميد ولىزاده/ عضو الهيأة العلمية لقسم اللغة العربية وآدابها والمساعد لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة أذربيجان لإعداد المعلمين

أ.م.د. عبد الاحد غيبى/ عضو الهيأة العلمية لقسم اللغة العربية وآدابها ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة أذربيجان لإعداد المعلمين

م.م. سكينة بهرامي/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة أذربيجان لإعداد المعلمين

م.م. على صيّادانى/ طالب الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران

Nostalgia to Native Land in Islamic Literature

Asst. Prof. Dr. Hameed Wali Zada / A member of the Academic Board for Arabic Language and Literature subordinated to the College of Arts and Human Sciences in the University of Azerbaijan for Teachers

Asst. Prof. Dr. Abdel Ahad Gaybi / A member of the Academic Board for Arabic Language and Literature and the head of Arabic Department in the University of Azerbaijan for Teachers

Asst. Lecturer Sukaina Bahrami / College of Arts and Human Sciences in the University of Azerbaijan for Teachers

Asst. Lecturer Ali Sayadani / A Ph.D. student of Arabic language and literature in the University of Tehran

lateracher@gmail.com

Abstract

Nostalgia to native land is still one of the main themes tackled from ancient ages in Arabic literature. Poetry of nostalgia in the pre-Islamic period is restricted to the remains of the beloved's and the tribe's homeland but in the Islamic era, the concept of poetry of nostalgia develops. This research attempts to tackle the theme of nostalgia represented by nostalgia to the beloved, native land, and the patriotic verse such as pride poetry and the elegies of martyrs with examples from the most famous poets such as Ilia abu Madhi, al-Kansa, Jameel bin Mamar, Tameem bin Abi Mukbel, al- Nabiga al- Juadi, Hassan bin Thabit al-Ansari and others. It is observable that nostalgia becomes clearer in this era.

الملخص

مازال التّوق إلى الوطن الأمّ من الموضوعات الأساسية منذ الأزمنة القديمة في الأدب العربي، وكان شعر التوق والحنين إلى الوطن الأمّ يقتصر قبل الفترة الإسلامية على الأطلال والدّمن التي قد بقيت من ديار الحبيبة والقبيلة، ولم يتجاوز مفهومُ الوطن عن الحيّ والقبيلة؛ أمّا في العصر الإسلامي فإتّسع نطاق شعر الحنين إلى الوطن.

في هذه المقالة نحاول أن نصوّر هذا الموضوع وتجلّياته؛ كالحنين إلى الحبيبة، والحنين إلى الوطن الأمّ، والأشعار الوطنية كالفخر ورثاء الشهداء في الأدب الإسلامي، ونأتي بنماذج من الأشعار لأشهر الشعراء يعني إيليا أبي ماضي، والخنساء، وجميل بن معمّر، وتميم بن أبي مقبل، ونابغة الجعدي، وحسّان بن ثابت الأنصاري وغيرهم. إنَّ الملاحِظ في هذه المقالة يرى أنّ بصمات الحنين إلى الوطن قد راجت أيضاً في هذا العصر.

الكلمات الرئيسيّة: الوطن، التوق، الحنين، الأدب الإسلامي.

المقدمة:

مِن أسمى سمات العرب في العصر الجاهلي، هي الترحال من مكان إلى مكان آخر للحصول على موارد العيش واختلاف الثروات بين الثَّري والفقير وتنوّع موارد الكسب عندهم. إنّ البعض منهم طُرِدَ من قِبَل الأسرة والقبيلة بسبب اختلاف القبيلة والتعصب في الدّم منهم الصعاليک الّذين ثاروا على قبائلهم وكانوا يقومون بالإغارة في الفلوات ويرزقون ويعيشون بهذا الطريق. هذا ليس بمعنى أنّهم كانوا ينسون قبيلتهم وأسرتهم بل رأينا على أساس ما طالعنا في كتب مختلفة بأنّ العرب رغم أنّهم دائمًا كانوا في السفر لكنهم يبرزون حنينهم إلى مكان مولدهم والأماكن التي كانوا يقضون مدّة من أيامهم فيها أو مرَّت منها حبيبتهم. إنّ شعر التوق والحنين في هذا العصر يقتصر على الأطلال والدمن بسبب أنّ مفهوم الوطن بمفهومه الذي يطرح في عصور أخرى يتجاوز في هذا العصر عن الحي والقبيلة؛ فلا غرو أن نسمع كذلک كان الوضع في العصر الإسلامي هكذا، ولكن بسبب الفتوحات التي قد حدثت في هذا العصر إتسّع مفهوم الوطن رغم رواج الاختلافات الكثيرة في العقيدة والدين وهاجروا من مكان إلى آخر بأسباب سياسية ودينية، لكن نشاهد أشعارًا كثيرة تعبّر عن شوقهم ولوعة أنفسهم لِبُعد حبيبتهم ووطنهم وأسرتهم ويذرفون الدّموع على آثار المحبوب بحيث تطير نحوه القلوب.

مع هذه المقدمة الموجزة سنقوم بالبحث عن الحنين إلى الوطن الأمّ في الأدب الإسلامي ولكن قبل أن نتطرّق إلى البحث الأصلي سنتحدّث عن مفهوم الحنين والوطن والغربة، والحنين إلى الوطن في العصر الجاهلي والعصور بعد الإسلام موجزًا حتى تضيء أمامنا الطريق للبحث كثيرًا.

التوق والحنين لغةً واصطلاحاً:

التوق مصدر من تاق يتوق: اشتاق إليه ونزع، ويقال: تاق الشيءَ: اشتاقه ونزع إليه، وتاق إلى الشيء تَوقًا وتَوَقانًا: همَّ بفعله وخفَّ، وتاق عليه: عطف وحرص على إصلاح أمره، فهو تائق (ج تَوَقة). (أنيس، إبراهيم، 1372هـ.ش:90) وأمّا بالنسبة إلى مفهوم الحنين فهو الشّديد من البكاء والطّرب، وقيل: هو صوتُ الطَّرب عن حزن أو فرح، والحنين: الشوق وتوقان النّفس والمعنيان المتقاربان، حنّ إليه يحنُّ حنيناً فهو حانّ. والاستحنان: الاستطراب. (ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين، ج3، 1988م: 367) امّا الحنين في الاصطلاح يعني الشوق والاشتياق إلى الوطن بما فيه من الأسرة، والأصدقاء، وعهد الطفولة والصِّبا وغيرها. وهذا من طبيعة الإنسان أن يميل إلى ما يحبّه والمكان الّذي يعشقه.

الوطن عند العرب لغةً واصطلاحًا:

في البحث عن مدلول كلمة «الوطن» اللغوي في المعاجم المختلفة سنصل إلى هذه النّتيجة أنّه بمعنى المنزل الذي يقيم فيه الإنسان، وهو موطن الإنسان ومحلّه. (ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين، ج7، 1988م: 949) وقد يستعمل أيضاً مجازاً بمعنى «مرابض»، وهذا ما قد أشار إليه ابن منظور في «لسان العرب» وزمخشري في «أساس البلاغة» بقوله: «و من المجاز: هذه أوطان الغنم: لمرابضها.» (زمخشري، جار الله، د.ت:503) وقد أخذت منه كلمة «ميطان» وهو بمعنى «الموضع الّذي يُوطّنُ لترسلَ منه الخيل في السّباق وهو اوّل الغايةِ، والميتاء والميداء آخر الغايةِ؛ وفي رأي الأصمعي: هو المَيدان والمِيطانُ، بفتح الميم من الأوّل وكسرها من الثّاني.» (ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين، ج7، 1988م:949) وفي مختار الصّحاح: الوطن بمعنى الأرض. (الرازي، محمد بن أبي بكر، 1995م:303) وفي «المعجم الوجيز» جاء بمعنى «مكان إقامة الإنسان ومقرّه، إمّا ولد فيه أم لم يولد.» (مدكور، إبراهيم، 1990م:674) وفي الاصطلاح يطلق الوطن على مكان له علاقة بعقيدة الإنسان وأن يحسّ فيه الإنسان بالأمن والقرار وقيل أيضاً: «يرتبط مفهوم الوطن بعلاقات وقيم عقائدية واجتماعية وفكرية، وكلّما اتّسعت هذه المفاهيم اتّسع مفهومه، وقد يصغّر حتّى يضمّ الأرض الّتي يعيش عليها المرء، وتحدّها حدود مشتركة وقد يتّسع حتّى يشمل كلّ أرض يرتبط أهلها بعلاقات مشتركة.» (بيره جكلي، زينب:41)

التوق والحنين إلى الوطن الأمّ في الأدب العربي:

تكلّمنا سابقاً عن مفهوم التوق، والحنين، والوطن ولابدّ أن لاننسى أنّ الاغتراب يسبّب الشوق إلى الوطن وهو الذي واجهه الإنسان من القديم. أهمّ سمات هذا النمط من الاغتراب لميكن إلاّ الحنين إلى الوطن الأمّ، وهو قديم قدم الشعر العربي نفسه. وكان من أحد الموضوعات الّتي خيّمت في ساحة الشّعر العربي منذ الجاهليّة حتّى المعاصر. هنا سنركّز على تجليّة هذا الحنين في أشعار بعض الشّعراء وسنحاول أن نعالجها مختصراً لضيق المقام.

كما نعلم أنّ العرب في العصر الجاهلي دائماً كانوا يذهبون من مكان إلى مكان آخر طلباً لموارد العيش والحصول على العشب والكلأ، ولايستقرّون في مكان واحد ويتركون خلفهم آثاراً بحيث حينما يمرّون عليها فيما بعد، تثير مشاعرهم وعواطفهم. هكذا نرى أنّ الوطن عندهم في البداية قد تجلّى في صورة عصبية القبيلة، التفاخر، ومدح حكماء القبيلة، وأيضاً قد تجلّى بصورة الأطلال والدّمن الّتي قد بقيت من ديار حبيبتهم، وهم عبّروا عنها وأبرزوا حنينهم بالنسبة إليها. لنا في ذلك نماذج كثيرة منها قول إمرئ القيس الّذي يقول:

قِفا نَبكِ مِن ذِكرَى حَبيبٍ ومَنزِلِ بِسِقطِ اللِّوَى بَينَ الدُّخولِ فَحَومَلِ
فَتُوضِحَ فَالمِقراةِ لَم يَعفُ رَسمُها لِما نَسَجَتْها مِن جَنوبٍ وَشَمأَلِ
وإنَّ شِفائِيَ عَبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ فَهَل عِندَ رَسمٍ دارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ[1] (إمرؤالقيس، ديوان:110-111)

أو قول عنترة العبسي:

هَل غادَرَ الشُّعَراءُ مِن مُتَرَدَّمِ أم هَل عَرَفتَ الدَّارَ بَعدَ تَوَهُّمِ
يا دارَ عَبلَةَ بِالجَواءِ تَكَلَّمي وعِمِي صَباحاً دارَ عَبلَةَ واسلَمِي
فَوَقَفتُ فِيها ناقَتِي وكَأَنَّها فَدَنٌ لأقضِيَ حاجَةَ المتَلَوِّمِ[2] (تبريزي، الخطيب، 2004م:147-149)

نكتفي بهذا القول من الدكتور شوقي ضيف في هذا العصر، وهو «ما بكاء للأطلال والديار إلاّ الصورة الثابتة لهذا الحنين الذي نمي معهم «أي العرب» على مرّ الزمن واختلاف المنازل والأمكنة.» (حوّر، إبراهيم،1989م:45)

نقدم خطوة ونصل إلى العصر العبّاسي وعصر الانحطاط؛ ازداد الشعر الوطني والحنين إليه فيهما؛ لأنَّ الفتوحات كانت كثيرة في هذين العصرين بالنسبة إلى العصور الأخرى، وإنَّ المتصفّح لدواوين شعراء هذين العصرين ليرى أنّها مليئة بهذا النوع من الشعر ولاسيّما في العصر العبّاسي الثاني. تدلّ لها آثار كثيرة حول الوطن والحنين إليه مثل «الحنين إلى الأوطان» للجاحظ. ولعلّ أروع ما قيل من هذا النوع من الشّعر هو قول أبي فراس الحمداني الّذي أصبح أسيراً في أيدي الروم، فماطله سيف الدّوله بالفداء:

أقُولُ وقَد ناحَتْ بِقُربِي حَمامَةٌ أيا جارَتا هَل تَشعُرينَ بِحالِي؟
أيا جارَتا ماأنصَفَ الدَّهرُ بَينَنا تَعَالَي أُقاسِمُكَ الهُمُومَ تَعالَي
تَعالَي تَرَي رُوحاً لَدَيَّ ضَعيفةً تَرَدَّدُ في جِسمٍ يُعَذَّبُ بالِي (أبوفراس، ديوان: 126)

ما أجمل تصوير الشاعر من ألمه في غربته، إنّه قد جلس قرب الشُبّاك وحمامة فوق الشّجرة؛ يخاطب الحمامة ويتكلّم عن ألمه وغربته، ويريد منها أن تشاركه الهموم وتقاسمه إياها. وهذه الحمامة هي الّتي قد أثارت الشوق والحنين.

وهذا أبوتمام شاعر العصر العبّاسي وهو كثير التّجوال في بلدان مختلفة؛ منها مصر والشام والعراق، يبيّن حنينه بأجمل صورة؛ إليك هذه الأبيات منه:

نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَى ما الحُبُّ إلاّ لِلحبيبِ الأوَّلِ
كَم مَنْزِلٍ في الأَرْضِ يَألَفُهُ الفَتَى وَحَنينُه أبداً لأوَّلِ مَنْزِلِ (أبوتمام، ديوان:408)

وهذا ابن زيدون، الشاعر الأندلسي الشّهير، الّذي أسر على يد الروم وسجن في مدينة بطلميوس، له أشعار وطنيّة مليئة بالشوق إلى الوطن؛ اتّسم شعره بصدق الشّعور وظرافة العاطفة. نراه في هذه القصيدة يذكر قرطبة وأيّام صِباه فيها، ويشوق إليها ويتذكّر أيضاً الأماكن الّتي قضي فيها أيّام صباه ويقول:

تَنَشَّقَ مِن عَرْفِ الصَّبا ما تَنَشَّقا وعاوَدَهُ ذِكرُ الصِّبا فَتَشَوَّقا
ومازالَ لَمعُ البَرقِ لما تألَّقا يَهيبُ بِدَمعِ العَينِ حَتّى تَدَفَّقا

ويخاطب قرطبة ويقول:

أقُرطَبَةُ الغَرّاءُ! هَل فِيكِ مَطمَعٌ وهَل كَبِدٌ حَرَّى لِبَيْنِكِ تُنقَعُ
وهَل لِلَياليكِ الحَميدَةِ مَرجِعُ؟ (ابن زيدون، ديوان: 18-12)

شاعرنا كان بعيداً عن حبيبه، والنسيم ولمعان البرق في السّماء، والدّموع جارية من عيونه، هو الّذي يتذكّره بأيّام الصّبا. وهذا ابن نباتة المصري الّذي كان يعيش في عصر الانحطاط، وقد قاسى في غربته الشّدائدَ فلذلك كان دائم الحنين إلى مصر وكثير الشوق إلى معاهدها؛ إليك مقتطفات من قصائده:

بِأبي الخدودَ العارياتِ مِنَ البُكاءِ اَللّابِساتِ مِنَ الحَريرِ جَلابِبا
آهاً لِمِصْرَ وأَرْضِ مِصْرَ وكَيفَ لِي بِديار مِصْرَ مَراتِعاً ومَلاعِبا

(ابن نباتة، ديوان:26)

إنّ الشاعر يذكر أنّ كلّ شيء في مصر يكون جميلاً ويتأوّه لبعده عنه ويتذكّر مراتعه وملاعبه.

على ضوء ما تكلّمنا عن التّوق والشوق إلى الوطن نستطيع أن نقول إنّ دائرته كانت محدودة في تلك العصور ولكن في العصر المعاصر وفي أشعار المهجريّين يتّسع ويشمل أمورًا كثيرةً بحيث يختلف معه في كيفيّته وكمّيّته، وكان أوّل من يلفت النّظر في هذا الباب هو أحمد شوقي الّذي لقّب بأمير الشّعراء؛ أجمل ما قال فيه أحمد شوقي هو حنينه إلى مصر بعد أن ينفى مع أسرته إلى الإسبان وأقام في فندق برشلونة، ينشد فيها شعراً في الحنين إلى مسقط رأسه ومربع صباه، يقول:

اختِلافُ النّهارِ واللَّيلِ ينسي اُذكُرا لِي الصِّبا وأيّامَ أُنسِي
وَصِفا لِي مُلاوَةً مِن شَبابٍ صُوِّرَت مِن تَصَوُّراتٍ ومَسِّ
عَصَفَتْ كَالصَّبا اللَّعُوبِ وَمَرَّتْ سِنةً حُلوَةً، ولِذّةَ خَلسِ
وَسَلا مِصرَ هَل سَلا القَلبُ عَنها أو أسا جُرحَهُ الزّمانُ المُؤَسِّي؟[3]

(شوقي، أحمد, ج1, 1998م:284-285)

يريد الشّاعر أن يبين كلّ ما عاناه من غربة ووحدة قاسية والشعور بالشوق إلى أهله ووطنه وهو وحيدٌ في منفاه ويحنّ إلى وطنه ويقول: إنَّ مرّ الزّمن يذكّره أيّام الصّبا والأنس ولايستطيع أن ينسى الوطن ولو ينساه الوطن، وهو كان متوجّعًا من الظلم الّذي يعانيه وطنه ويبكي على ملاعب شبابه وعهد صباه، ويشير أيضاً إلى أنّ الزّمان لايستطيع أن يداوي جرحه بل الشيء الذي يستطيع أن يداويه هو مصر فقط.

إليك قصيدة «لبنان» لإيليا أبي ماضي، نراه يعبّر عن حنينه إلى الوطن في صورة حلم بديعٍ، ويقول:

إثنانِ أعيا الدَّهرَ أن يُبليهِما لبنانُ واَلأمَلُ الّذِي لِذويه
نَشتاقُهُ والصَّيفُ فَوقَ هِضابِهِ ونُحِبُّهُ والثَّلجُ فِي وادِيهِ
وَ إذا تَمُدُّ لَهُ ذُكاءُ حِبالَها بِقَلائدِ العِقيانِ تَستَغويهِ
وَ إذا تَنَقَّطُهُ السَّماءُ عَشيّةً بِالأَنْجُمِ الزَّهراءِ تَسترَضِيه
وَ إذا الصَّبايا فِي الحُقولِ كَزَهرِها يَضحَكنَ ضحكاً لاَ كَلُفَ فِيه
هُنّ اللّواتي قَد خَلَقنَ لِي الهَوَى وسَقَينَني السِّحْرَ الّذي أسقيهِ
هَذا الّذِي صانَ الشَّبابَ مِنَ البِلَى وأبَى عَلَى الأَيّامِ أن تَطويهِ

(أبوماضي، إيليا: 793)

التّوق إلى الوطن الأمّ وتجلياته في الأدب الإسلامي:

كما نعلم أنّ الإسلام دينٌ شعاره هو الجهاد في سبيل الله، والإعانة على المستضعفين، وإنقاذ المظلومين من أيدي الظالمين والدفاع عن الوطن أمام المستكبرين. والله تعالى قد أشار بمرّات إلى الهجرة والخروج عن الوطن والجهاد في سبيله، كما قال: «وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ والْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاء والْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا واجْعَل لَنَا مِن لَدُنكَ وَلِيًّا واجْعَل لَنَا مِن لَدُنكَ نَصِيرًا» (النساء/75) وفي آية أخرى قد أشار إلى منزلة المهاجرين والمجاهدين وبشّرهم بعطاء عظيم عنده وقال: «الَّذِينَ آمَنُوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (20) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ ورِضْوانٍ وجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21) خالِدِينَ فِيها أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22)» (التوبة) وآيات أخرى أيضاً موجود في هذا الصدد ولكن بسبب خروج الكلام عن إطار البحث نكتفي بهذا المقدار.

وإنّه لجدير بالشاعر أن ينطق بالحنين والاشتياق المبرح واللوعة القاسية بعد مرور السنين، ويجب ألا نغفل حقيقة بأنّ كلّ شيء في الغربة مسبّب للحزن ومؤدّ إلى الإحساس بالوحدة والضياع والغربة ويتجلّى تأثير هذه الغربة بشكل الحنين إلى الوطن بأنواع خاصة، منها: الحنين إلى الوطن الأمّ، والحبيبة، والأشعار الوطنية كالثورة على المستكبرين، وتحريض القوم على الكفاح معهم، والحرية، والحنين إلى الأهل والأصدقاء وغيرها.

يعتقد شوقي ضيف بأنَّ إحساس الشوق والحنين هو نزوع شعوري بالنسبة إلى ما افتقده الإنسان وميل عجيب إلى وصاله ومنها الإخلاص والوفاء والحبّ. (ضيف، شوقي، 1988م:293)

بعد هذا العرض جدير بأن نشير إلى أنواع هذا الحنين في شعر شعراء العصر الإسلامي.

الحبّ إلى الحبيبة:

لعلّه من المفيد في هذا البحث الإشارة ولو كانت سريعة، إلى حُبّ المرأة أو الحبيبة عبر العصور الماضية ثمّ التطرّق إلى البحث عن شوقهم إليه ولاسيّما في شعر شعراء العصر الإسلامي. إنّ الحبّ إلى الحبيبة شيءٌ ملحوظ عند الشعراء العرب منذ أقدم العصور، ولايخفى علينا بأنّه من الموضوعات الّتي كانت مع الإنسان منذ كان، وممّا يجدر ذكره في هذا المقام بأنّ العرب يقومون بإبراز حبّهم إلى حبيباتهم بصورتين، إمّا بصورة الغزل العفيف، وهو الّذي يقومون بوصف المرأة بذكر صفاتها الحميدة دون أن يخرجوا عن نطاق العفّة؛ وهو يشمل الشكوى من فراقها والأمل في الوصول إليها، وإمّا بصورة غير العفيف، وهو وصف المرأة دون رعاية حدود العفة مثل ما قال امرؤالقيس حول حبيبته. يبدو أنّه قد يوجد هذان النوعان في جميع العصور.

هناك نقطة أخرى نحبُّ أن نشير إليها قبل أن ننتقل إلى نقطة أخرى وهو «أنّ الحبيبة كانت من إحدى الرّموز الّتي انطوى تحتها أسى الحنين إلى الوطن ربّما أنّ الشّاعر يحِنُّ إلى حبيبته الّتي خلّفها وراءه في الوطن، إنّما يحنّ في الحقيقة إلى وطنه كلّه.» (داوود، أنس، 1967م:298) ولم يقتصر الحنين إلى الوطن على كلّ ما أشرنا اليه في السطور الماضية بل إنّ المغتربين قد برعوا فامتزجوا الحنين إلى الوطن بالحنين إلى الحبيبة امتزاجًا بسيطًا رائعًا؛ وهذا المفهوم هو الّذي نراه لدي «عمر بن أبي ربيعة»؛ إليک بعض الأبيات من قصيدته تحت عنوان «لقاء وفراق» يبدأ بمقدّمة غزلية على غرار الأقدمين، نقتطف منها:

مررتُ على أَطلال زينبَ بعدَها فأعولتُها لو كان إعوالاً يغني

(عمر بن ابي ربيعه، ديوان:264)

وفي مكان آخر يتذكر الشاعر أنّ تذكار هند والتفكر حولها سبب زوال عقله وهيمانه، يقول:

فَبحسبي أنّي بذكرة هندٍ هائمُ العَقلِ دائمُ الأحزانِ

وَ إذا أحببتُها لأشكُو إليها بَعضَ ما شَفّنيي وما قد شجاني

هبتها وازدَهَى مِنَ الحُبِّ عَقلِي وعَصانِي بِذاتِ نَفسِي لِسانِي

ونسيتُ الذي جمعتُ مِنَ القول لديها وغاب عنّي بيـاني

(نفس المصدر:273)

نشاهد أيضاً أنّه شبّه حبيبته بظبية ويعاوده الأيام الماضية، وذكرها يحزنه ويملأ قلبه من الحزن والشجن ويقول :

إنَّني اليومَ عادَني أحزانِي وتَذَكّرتُ ما مَضَى فِي زَمانِي

وتَذَكَّرتُ ظَبيةً أُمَّ رِئْمٍ صَدَعَ القَلْبَ ذِكْرُها فَشَجَانِي

(نفس المصدر:290)

وفي قصيدة أخرى يرى الشاعر وطن المحبوب وطنًا لنفسه ويقول:

هل تعرف الدّارَ والأطلالَ وَالدِّمَنا زِدنَ الفُؤادَ على عِلاّتِه حَزَنا

دارٌ لأسماءَ قَد كانَتْ تَحُلُّ بِها وأنتَ إذ ذاكَ إذ كانت لَنا وطنا

لم يحببِ القلبُ شيئًا مِثلَ حُبِّكُم ولَم تَرَ العَينُ شَيئًا بَعدَكُم حَسَنا

مَا إنْ أُبالِي إذا ما اللّهُ قَرّبَكُم مَنْ كانَ شَطَّ مِنَ الأَحبابِ أوظَعَنَا

فَإن نَأيتُم أَصابَ القَلْبَ نأيكُم وإن دَنَتْ دارُكُم كُنْتُمْ لَنا سَكَنا

(نفس المصدر:306)

وفي مكان آخر يمرّ الشّاعر على أطلال الحبيبة وتَزيدهُ حُزناً ويتحدّث معها ويتذكّر أيامه الّتي اقتضاها بالجزل والفرح ويتحسّر عليها:

قَد زادَ قَلبي حَزَنًا رَسمٌ ورَبعٌ مُحولُ

رَبعٌ لِهندٍ مُقفِرٌ قَد كان حيناً يوهَلُ

ما إن به مِن أهلِهِ إلاّ الظِّباءُ الخُذَّلُ

قَد كُنتُ فيهِم ناعِماً ألهُو بهم وأَجذَلُ (نفس المصدر:331-330)

وحسّان بن ثابت هو الشاعر الآخر في الأدب الإسلامي، يبين أسبابَ البُكاءِ ويعتبر فقدان الحبيب بَليةً ويقُولُ:

تَأوّبَني لَيلٌ بِيثربَ أعسَرُ وهَمٌّ إذاما نَوّمَ النَّاسُ مُسهِرُ

لِذكرى حَبيبٍ هيجَت ثَمَّ عَبرَةً سَفُوحاً وَأسبابُ البُكاءِ التَّذَكّرُ

بَلاءٌ وفِقدانُ الحَبيبِ بَليـةٌ وكَم مِن كَريمٍ يبتَلَي ثُمَّ يصبِرُ

(حسّان، ديوان:107)

وحينما طَلّقَ امرأته عمرة يقول حول حبّه بالنسبة إليها ويحنّ إليها:

أَجمَعَتْ عَمرَةُ صَرْمَاً فَابتَكِرْ إنّما يدهِنُ لِلقَلبِ الحَصِرْ

لا يكُنْ حُبّكِ حُبًّا ظاهِرًا ليسَ هَذا مِنكِ يا عَمْرَ بِسِرّ

سألَتْ حَسّانَ مِنْ أخوالِه إنّما يسأَلُ بِالشَيءِ الغُمُرْ

قُلتُ أخوالي بَنوكَعبٍ إذا أسلَمَ الأبطالُ عَوَراتِ الدُبُرْ

رُبَّ خالٍ لِيَ لَو أبصَرتِه سَبِطِ الكفينِ في يومِ الخَصِرْ[4]

(نفس المصدر:123)

والشاعر الآخر هو جميل بن معمّر الذي عُرِفَ بالغَزل العذري، إنّه يستعمل أدات الاستفهام ويخاطب الناس بأنّه قد فقد صبره في فراق الحبيبة ويقول:

أيبكي حَمامُ الأيكِ مِن فَقدِ إلفِهِ وأصبِرُ؟ ما لي عَن بُثينةَ مِن صَبرِ!

وَما لِي لا أبكِي وفِي الأيكِ نائِحٌ وقَد فارقَتني شَختةُ الكَشحِ والخَصرِ

(جميل بن معمّر، ديوان:76)

والشاعر أيضاً يردّ قول الّذين بأنّه مسحور ويقول إنّه لا ينساها أبداً ويشبه حبّه إليها بحبّ الإنسان إلى الخمر:

يقولون: مَسحورٌ يجَنُّ بِذِكرِها وَأقسِمُ ما بِي مِن جُنونٍ ولا سِحرِ!
وَأقسِمُ لاأنساكِ ما ذَرَّ شارِقٌ وما هَبَّ آلٌ في مُلَمّعةِ قَفرِ
وَما لاحَ نَجمٌ فِي السّماءِ مُعَلّقٌ وما أورَقَ الأغصانُ مِن فَنَنِ السّدرِ
لَقَد شُغِفَت نَفسِي بُثَينَ بِذِكرِكُم كَما شُغِفَ المَخمورُ يا بُثَينَ، بِالخَمرِ

(نفس المصدر:76)

وفي نهاية القصيدة يبرز حنينه إليها بلوعة ويقول:

ذَكَرتُ مَقامي لَيلَةَ البانِ قابِضًا على كَفِّ حَوراءِ المدامِعِ كَالبَدرِ
فَيا لَيتَ هَل أبيتَنَّ لَيلَةً كَلَيلَتنا حتّى نَرى ساطِعَ الفَجرِ
ولَو سَأَلَتْ مِنّي حَياتِي بَذَلتُها وَجُدتُ بِها إن كانَ ذلِكَ مِن أمري
مَضى لِي زَمانٌ، لَو أخَيرُ بَينَهُ وبَينَ حَياتي خالِدًا آخِرَ الدّهرِ
لَقُلتُ: ذَروني ساعَةً وبُثينةَ على غَفلةِ الواشين ثُمّ اقطعَوا عُمري

(نفس المصدر:77)

ومن الطريف أيضاً أنّ هذا الشّاعِر يندَمِج حَنينه إلى الحبيبة والوطن في اسلوب رائع وجميل ويتذكّر الأماكن الّتي قد مرّ عنها مع الحبيبة زمنا ويريد منها أن تتذكرّها:

تَقولُ بُثَينَةُ لَمّا رَأت فُنوناً مِنَ الشّعرِ الأحمَرِ
كَبرتَ جميلُ وأودَي الشّبابُ فَقُلتُ:بُثَينَ، ألا فاقصُري!
أتَنسَينَ أيامَنا باللّوي وأيامَنَا بِذَوي الأجفَرِ؟
أما كنتِ أبصَرتَني مَرّةً لَيالِي، نَحنُ بِذي جَهوَرِ
لَيالِي أنتُم لَنا جيرَةٌ ألا تَذكرينَ؟ بَلي فَاذكُري!
وإذا أنا أغيدُ غَضُّ الشَّبابِ أجُرُّ الرّداءَ مَعَ المئزَرِ

(نفس المصدر:85-86)

التّوق إلى الوطن الأمّ:

لاريب أنَّ الشعراء في الاغتراب يمكن أن يؤانسوا مع أوطانهم الجديدة، ولكنّهم كانوا دائمي التّوق إلى مسقط رأسِهم ويحِنّون اليه حنّاً شديداً، لأنَّ الوطنَ الأمّ له قيمة كثيرة، ولايمكن بسهولة أن يتخلّي الغريب عنه وينساه، كما يشير إليه محمّد عبد العزيز الكفراوي في كتابه «تاريخ الشعر العربي» قائلاً: «تعلّقهم الشديد بالوطن أتاح لهم أن يحيوا حياة عربية وسط ما تقع عليه أعينهم من حياة حديثة ومدنية جديدة.» (الكفراوي، محمد عبد العزيز، د.ت،ج4،ص206) ربّما هناك تطرح هذه الاسئلة على ذهن القارئ البارع؛ هل من الممكن للنسور أن تترك التحليق في الأجواء أو أن تترك فراش دورها حول الزّهور؟ بالطّبع لا؛ لايمكن أن يعيش الإنسان في وطن آخر دون أن يتذكّر وطنه الأمّ ولو تصفّحنا دواوين الشعراء العرب في جميع العصور لَوجدناها ملئية بذكر الأوطان ووصف جمالها والتعلّق بها، ولايمكن أن تخلو من ذكر الوطن، وكما أشرنا إليه في مقدمة البحث أنّ في العصر الجاهلي كان الشعراء يبكون على الأطلال ويبينون شوقهم إلى الوطن والحبيبة.

ومن الطّبيعي أنَّ الإنسان يرتبط بمكان مولده ويحبّه ويفضّله على غيره من الأماكن، ربّما أنّ الظروف لمتكن ملائمة مع أفكاره، ولكن أجمل مكان له وطنه الأول الّذي نشأ وترعرع فيه، فكان مرتع طفولته وصباه بحيث تحسب هذه الأدوار من أجمل الأيام الّتي قد قضاها ويتمنّى أن تعود مرّة أخرى، ويملأ قلبه شوقاً ومحبّة واحترامًا حينما يشاهد أيّ شيء وأيّ مناظر يشبه بوطنه.

لحسان بن ثابت في هذا الصدد قصيدة رائعة تصدّق على هذا الأمر، إنّه يستفيد من أسلوب التكرار ويتلذّذ من تكرار اسم وطنه الأمّ وبهذا التكرار كأنّه يريد أن يلتفت الإنتباه إلى ما يملأ قلبه من ألم وحسرة البعد عن الوطن؛ يقول:

وَ يثرِبُ تَعلَمُ أنَّا بِها وإذا التبسَ الأمرُ ميزانُها
وَ يثربُ تَعلَمُ أنَّا بِها إذا قَحَطَ القَطرُ نُوآنُها
يثرِبُ تَعلَمُ أنَّا بِها إذا خافتِ الأوسَ جيرانُها

(ديوان:248)

تستمر ظاهرة الحنين إلى الوطن الأمّ في شعر الشعراء في الأدب الإسلامي، وخير شاهد على هذا القول، كثرة الأشعار التي نُظِمت في عذا العصر؛ منها قول جميل بن معمّر:

أنا جميلٌ والحجازُ وَطَني فيه هَوي نَفسي وفيه شَجني

(ديوان جميل، 1993م:81)

ومنه قول ابن مكتوم وهو آخذ بذمام ناقة رسول اللّه وقت الهجرة فيذكر وطنه مكّة ويقول:

يا حَبَّذا مكّةَ مِن وادِي أرضٌ بِها أهلي وأولادِي
أرضٌ بها ترسَخُ أوتاري أرضٌ أمشي بِها بِلاهادِي (حوّر، ابراهيم، 1989م:45)

وهذا جميل بن معمر يمرّ على أطلال الحبيبة ويندمج الحبّ والتّوق إلى الوطن بذكر الاماكن والحبيبة وأيام شبابه ويقول:

إنّ المنازلَ هيّجَتْ أطرابي واستعجمَتْ آياتُها بِجَوابِي
قَفرَاً تَلُوحُ بِذي اللُجَينِ كَأنّها أنضاءُ رَسمٍ أو سُطورُ كِتابِ
لَمّا وَقَفت بها القَلوصُ تَبادرت مِنّي الدُّموعُ، لِفُرقَةِ الأحبابِ
وَذَكَرتُ عَصراً، يا بُثَينةُ، شاقَنَي وذَكَرتُ أيامِي وشَرْخَ شَبابِي

(ديوان:14)

ممّا لا شكّ فيه أنّ صورة الأطلال والدّمن والحنين إليها ليست مقصورًا على الجاهليّين بل نرى هناك الشاعر يقف متأمّلاً أمام الأطلال والدّمن التّي قد بقيت من آثار القبيلة، ويسأل عن الأماكن التي قد كانت فيها حبيبته، وهذه القطعة الرائعة قد تكون خير ما نظم تميم بن أبي مقبل:

قِفا في دارِ أهلي فَاسألاها وَكَيفَ سُؤالُ أخلاقِ الدّيارِ
دَوائِرُ بَينَ أرمامٍ وغُبرٍ كَباقِي الوَحي في البَلَدِ القِفارِ

(بديوي، أنس،2009م:142)

الأشعار الوطنية:

قبل الغوض في البحث عن هذا الموضوع في أشعار الشعراء، يجب علينا أن نقدّم تعريفًا جامعًا واضحًا عن هذا الموضوع حتّى نستطيع في مراحل أخرى أن نميّز الأشعار الوطنية وموضوعاتها في أشعارهم. يتحدّث الدكتور أنوشه في كتابه «دانشنامه أدبي فارسي» عن الوطنية ويقول: «كلّ أثَر منظوم أو منثور يكتب حول حبّ الوطن، وتكريم وتبجيل القيم، والفخر، والاكتئاب والتحسّر لِأجل فقد هذه القيم، يسّمى الوطنية، وهي تنقسم إلى قسمين:

أ) المكتوبات الّتي تكتب وتنشر حينما يصاب الوطن بالمخاطرة، وموضوعاتها: الحسرة والتأسّف على فقد القيم الوطنية والتذكير والتكريم.

ب) الأشعار التي تنشد لِأجل تذكار الوطن وتبجيل قيمه.» (أنوشه، حسن،1376هـ.ش، ج2: 1418) وقد جاء في كتاب «شعراءالعصبة» هكذا: «و هذه النزعة أي الحنين الطاغي إلى الوطن وأهله وأحبّته كانت نزعة إنسانيّة أصيلة في نفس الإنسان وكان توطيد الشعور القومي في نفس الإنسان العربي من نتاج ذلك.» (الدقاق، عمر،1987م: 203)

كثرما يشاهد هذا النوع في شعر شعراء في هذا العصر مصوّرين في أشعارهم آمال بلادهم وآلامهم، ويقومون بالبحث عن قضايا الوطن مثل التشجيع بالحرب، وتذكار مصائب البلاد، ورثاء الشهداء، واستنهاض الهمم، وغيرها. لابدّ أن لاننسى أنّ الوطنيات هي تُحسب من ضروب الحنين إلى الوطن. إنّ القارئ لدواوين هولاء الشّعراء لَيرى حتماً في أشعارهم هذا النوع من الحنين بشكل واضح، ويشاهد أنّهم لم يخب سعير حنينهم إلى أهلهم وبلادهم وأصدقائهم ولم تذبل جذوته. من أهمّ الموضوعات الوطنية التي قد وصلنا إليها بعد دراسةٍ في دووين شعراء هذا العصر، هي:

أ) استنهاض الهمم والحضّ على الثورة:

الشيء الذي يجب أن لاينسى هو أنّ الإسلام لقد غرس هذه الروح الإضطهادية والكفاح مع الأعداء في نفوس أبنائه وأكّد عليهم بأن لايصمتوا أمام الظالمين ويجب أن يقارعوا معهم ويدافعوا عن بلدهم. قد اهتمّ الرسول الأكرم (ص) الذي قد بعث زعيمًا للمسلمين في ذلک الزمن، بالوطن كثيرًا؛ قولُه: «حبّ الوطن من الإيمان» خيرُ شاهد على هذا القول؛ حيث نرى فيما بعد تأثير الاهتمام بالوطن في قول أصحابه؛ منهم نابغة الجعدي حينما طلبت زوجته منه أن يبقى جانبها، منشدًا:

يا بنتَ عَمّي كِتابُ اللّهِ أخرَجَنِي كُرهًا وهَل أمنَعنَّ اللّه ما بَذَلا
فَإن رَجَعتُ فرَبُّ النّاسِ أرجَعَني وإن لَحِقَتُ بِرَبِّي فابتغَي بَدَلا
ما كُنتُ أعرَجَ أو أَعمَى فَيعذُرني أو ضارعًا مِن ضنى لَم يستطع حولا

(آذرشب، محمد علي، 1385هـ:114)

ونشاهد شاعرًا آخر يتألّم من أوضاع بلده ويتأوّه بتلک الأيام ويشفق على أهلها من شدّة البرد فيها بحيث الناس يضعون أيديهم في جيوبهم ويحرّض بصورة غير مباشرة على قيام الناس لنجاة قومه من الكوارث والمصائب ومن ضيق العيش إلى الرفاه؛ إليک بعض الأبيات من قصيدته:

وَأرى بِمَرو الشاهجان تَنَكَّرَت أرض تتابع ثلجها المذرور
إذ لا تَرَى ذا بَزَّةٍ مَشهُورةٍ إلا تَخال كَأنّهُ مقرور
كلتا يديه لا تزايل ثوبَهُ كُلَّ الشتاء كأنّه مأسور

(الحموي، ياقوت، ج1399،5هـ:115)

وهذا نابغة الجعدي يتذكّر حال الأمم الغابرة قد هانت بعد عزّتهم حتّى يعتبروا من أوضاعهم ويقضوا من غفلتهم؛ من قوله:

يا أيها النّاسُ هل ترون إلى فارسَ بادَت وخدّها رَغما
أمسوا عبيدًا يرعَونَ شاءكم كأنّما كان ملكُهم حُلُما
أو سبأ الحاضرين مأربَ إذ يبنون من دون سيله العَرما
فَمُزّقوا في البِلادِ واغترفوا الـ هُونَ وذاقوا البأساء والقدما

(آذر شب، محمد علي، 1385هـ: 132)

ويظهر أنّ روح الجعدي تشرّبت بالإسلام فترک قومه وبقي في المدينة وجاهد بسيفه ولسانه وصوّر جهاده وتقواه في أبيات أضافها إلى رائعته التي أنشدها الرسولَ، قائلا:

وَجاهَدتُ حتّى ما أحسُّ ومَن معي سُهيلاً إذا ما لاحَ ثَمّتَ غوّرا
أقيم على التّقوى وأَرضِى بِفعلِها وَكَنتُ مِن النّار المَخوفَةِ أوجَرا

(نفس المصدر:132)

ب) رثاء الشهداء

حقيق بنا أن نتعرف بأنّ من أجمل الأشعار الوطنية هي رثاء الشهداء ومدحهم الّذين قد بذلوا أنفسهم في سبيل الوطن والقبيلة وقيمها وهو التعبير عن لوعة فراق الأحبّة الذين جاهدوا واستشهدوا. ومن الأفضل أن نستمع إلى قول امين الريحاني الذي يقول: «إنّ الأمّة الّتي يفادي الوطنيون بحياتهم من أجلها أمّة حية لا تموت، هي أمّة خالدة.» (الريحاني، امين،1987م:231)

لا بدّ أن لاننسى أنّ الرثاء قد يكتم فيه نوع من الشوق بحيث هم يرثون قبيلتهم ويتألّمون لما أصابهم من النكبات والمصائب. لمشاهدة الأكثر يجب أن نأتي بنماذج رائعة من الرثاء لبعض الشعراء، منهم الخنساء في ديوانها ترثى أخاها بكلمات حزينة بحيث ننفعل بها انفعالاً شديدًا، هي في قصيدتها لازالت تتذكّر في ألم وحسرة ما أصابها من فراق أخيها وما أصاب أخيها من الآلام:

يؤرِّقُني التّذكُّر حينَ أُمسي فَيردَعُني مَعَ الأحزانِ نُكسي
على صَخرٍ وَأي فَتًى كَصَخرٍ لِيومِ كَريهَةٍ وطِعانِ خَلسِ
فَلَم أسمَع بِهِ رُزءًا لِجِنٍّ ولَم أسمَع بِهِ رُزءًا لإنسِ
أشَدَّ على صُروفِ الدّهرِ آدًا وأفضَلَ في الخُطوبِ بغَيرِ لَبسِ

(الخنساء، ديوان:190)

وتخاطب صخر قائلةً:

ألا يا صَخرُ لا أنساكَ حتّى أُفارِقَ مُهجَتي ويشَقَّ رَمسي (نفس المصدر:190)

ولها أبيات تسيل حزنًا وألماً ورغبة جارفةً، رثت من خلالها أخيها معبّرةً عن حنينها الجارف إليه، راحت تسرد أبياتًا:

يذكّرني طُلوعُ الشّمسِ صَخرًا وأذكُرُه لِكُلِّ غُروبِ شَمسِ
فَلولا كَثْرَةُ الباكِينَ حَولِي على إخوانِهم لَقَتَلتُ نَفسِي
وَ لكِن لا أزالَ أرَى عَجُولاً ونائحةً تَنُوحُ لِيومِ نَحسِ

(نفس المصدر:191)

هناك قدّمت الشاعرة صورة حزينة بحيث تقطع القلوب، وتفتّت الأكباد وتذيب النفوس حسرة. وفي قصيدة أخرى، تواصل الشاعرة نفث مشاعرها الحارّة باكيا لفراق أخيها وأبطال الحرب وتتحدّث عن شجاعة أخيها بأنّها هو الذي دافع عن قبيلته وحمل عِبْءَ الأمور العظيمة عن قومه في مصائبهم؛ إنّها تخاطب عيونه أن تجري الدّمع لأجل فراق أخيه وتقول:

يا عَينُ جُودي بِالدّمو عِ المستَهِلاّتِ السَّوافِحِ
فَيضًا كَما فاضَ الغُرُو بُ المُترَعَاتُ مِنَ النّواضِحِ
فأبكي لِصخرٍ إذ ثَوَى بَينَ الضَريحةِ والصّفائِحِ
السيدُ الجَحجَاحُ وابنُ السّادَةِ الشُمِّ الجَحَاجِحِ
الحامِلُ الثِقلَ المهمَّ مِنَ الملِمّاتِ الفَوادِحِ

(نفس المصدر:192-193)

هي تختم قصيدتها بهذه الأبيات الجميلة والمنفعلة في توصيف فضائل أخيه وتقول:

وذاكَ الّذي كُنّا به نَشفى المريضَ مِنَ الجَوائحِ
نَرُدُّ بادِرَةَ العَدُوِّ ونَخوَةَ الشَّنِفِ المكاشِحِ

(نفس المصدر:194)

نلحظ في هذا البيت شدة الحسرة واللوعة التي تنبعث من أعماق القلب الذي يكابد ألم الفراق.

الفخر بالقبيلة:

إنَّ الملاحظ في دراسة موضوع في ذلک الأدب يرى وجود الموقفين؛ الموقف الأوّل: الإحساس بالغربة والحنين إلى الوطن والأطلال والدّمن، والموقف الثاني: الفخر بالقبيلة. جدير بالذكر أنّ الواحد من مضامين الأشعار الوطنية الّتي لها تأثير في النفوس، هي الفخر بالقبيلة والقوم. فإنّ الفخر والتعصب إلى القبيلة والقوم هو التعبير عن نزعة فطرية للعزّة والكرامة، كما هو وسيلة لدفاع الفرد عن القبيلة أمام الظلم. لا بدّ أن لاننسى أنّ ذكر المحاسن والصفات الجميلة للقبيلة والقوم، والحنين إليها قد يكون قالباً واسعاً لدى الشعراء وهي أعزّ شيء في الوجود بحيث هي أهمّ ظاهرة يلاحظها الباحث المتأمّل في أدب كلّ العصر. ربّما ابن خلدون هو أوّل شخص يتحدّث عن العصبية بمثابة تحكيم حسّ التكبر القومي والوطني. وباعتقاده العصبية توثّق العلاقة بين افراد القبيلة. (الفاخوري، حنا،1371هـ.ش: 744)

ممّا لا شکّ فيه أنّ الفخر إلى القبيلة والتعصبّ بها قد يكون من أسمى الصفات الجاهلية ويعتبر نوعًا من حبّ الوطن؛ لأنّه في العصر الجاهلي كان الاهتمام بالقبيلة كثيراً بحيث نستطيع أن نقول إنّها تعتبر وطنهم الأوّل، كما سبق ذكره بأنّ عيشهم قد بني على الترحال من مكان إلى مكان آخر ولايستقرّون في مكان ثابت حتى يعتبرونه وطنًا، بل المهمّ عندهم القبيلة. نحن نشاهد نماذج من الفخر في الشعر الجاهلي، ها هو عمرو بن كلثوم يتلذّذ من الفخر بالقبيلة ويصف قبيلته قائلاً:

بِأنّا مُطعِمُون إذا قَدَرنا وإنّا النازِلُونَ بِحَيثُ شِئنا
وَإنّا المانِعُونَ لما أرَدنَا وإنّا العازِمُون إذا عَصَينا

(أفرام البستاني، فؤاد، 1385هـ.ش: 136)

نلاحظ هذه الأبيات الجميلة تغلب عليها مسحة التّوق والشوق ولوعة الفراق بذكر أمجاد القوم. وإذا تأمّلنا في دواوين الشعراء العرب في الأدب الإسلامي لرأينا حسان بن ثابت يفتخر بقبيلته وببعض فضائل أخلاقية ومعنوية كالكرم، والشجاعة، وإعانة الآخرين الّتي لها قيمة كبيرة بحيث هذا الفخر أيضًا هو وسيلة للدفاع عن الوطن. في قصيدة له بعنوان «هلّم إلينا» قدأشار بهذا الموضوع:

أولئک قَومِي فَإن تَسْأَلِي كِرامٌ إذا الضَّيفُ يوماً ألَمْ
عِظامُ القُدُورِ لأَيسارِهِم يكُبُّونَ فيها المُسِنَّ السَّنِمْ
يواسُونَ مَولاهُم في الغِنَى ويحمُونَ جارَهُم إنْ ظُلِمْ
كانُوا مُلُوكًا بِأرضِهِم يبَادُونَ غَضْباً بِأمْرٍ غَشِمْ

(ديوان:220)

إنّه أيضا في قصيدة أخرى يعتبر قبيلته أفضل ملوک قبل الرسول الأكرم (ص) ويزيل عنهم صفة البخل ويقول:

وَ كُنَّا مُلُوکَ النَّاسِ قَبلَ مُحَمَّدٍ فَلَمّا أَتَى الإسلامُ كانَ لَنا الفَضْلُ
وَأَكرَمَنا اللّهُ الّذي لَيسَ غَيرَهُ إلهٌ بِأيام مَضَتْ مَا لَها شَكْلُ
أولئک قَومِي خَيرُ قَومٍ بِأَسرِهِم ولَيسَ على مَعروفِهم أبدًا قُفْلُ
يربُّونَ بِالمعرُوف مَعرُوفَ مَن مَضى فَما عُدَّ مِن خَيرٍ فَقَومي لَهُ أهْلُ
إذا اخْتُبِطوا لَم يفْحِشُوا فِي نَدِيهِم وليسَ على سُؤَّالِهِم عِندَهُم بُخْلُ

(نفس المصدر:193)

وهذه الخنساء بعد ما تشكو من الدّهر بما أصابها من البلايا تتحسّر من فقد قبيلتها وهذا الأمر يؤلمها كثيراً وتتذكّر عزّة قبيلتها وتحنّ إليها بلوعة تحرق القلوب، حينذاک تفخر بقبيلتها وتقول:

تَعَرَّقَنِي الدّهرُ نَهْساً وحَزًّا وأَوْجَعَني الدّهرُ قَرْعاً وغَمْزَا
وأَفنَى رِجالِي فَبادوا مَعَاً فَأصبَحَ قَلبي لَهُم مُستَفَزّا

كأنْ لم يكُونوا حِمًى يتَّقي إذ النّاسُ إذ ذاكَ مَنْ عَزَّ بَزّا
وكانوا سَراةَ بني مالكٍ وزَينَ العَشيرَةِ مَجداً وعِزًّا
هُمُ مَنَعُوا جارَهُم والنّسا ءُ يحفِزُ أحشاءَها الخوفُ حَفزَا[5]

(الخنساء، ديوان:155-156)

وهي في قصيدة أخرى تفتخر بشجاعة أبيها وأخويها وإخوانها الديني في ساحة الحرب وتقول:

أُبَكّي أبي عَمرًا بِعَينٍ غَزيرَةٍ قَليلٍ إذا نامَ الخَليُّ هُجُودُهَا
وَ صِنوَي لأنسى مُعاويةَ الّذي لَهُ مِن سَراةِ الحَرّتينِ وُفُودُهَا
وَ صَخرًا ومَنذا مِثلُ صَخرٍ إذا غَدا بِساحَتِه الأبطالُ قَزمٌ يقودُهَا
أولئكَ أهلُ المجدِ مِن آل غالبٍ وفي العِزِّ مِنها حين تُثنَى عديدُهَا[6]

(نفس المصدر:217)

وكعب بن زهير يقول في قصيدة تنبعث عن عاطفة صادقة وتتدفّق عن وجدان سليم عن شجاعة قبيلته وتضحياتهم:

والذائدينَ النّاسَ عن أديانهم بِالمشرفي وبِالقَنا الخَطَّارِ
والباذِلينَ نُفُوسَهُم لِنَبيبهم يومَ الهِياج وقُبَّةِ الجَبّارِ
وَهُم إذا خَوَتِ النجومُ فَإنّهم لِلطائفينَ السّائلينَ مَقاري
وهُم إذا انقلبوا كأنَّ ثيابَهُم مِنها تَضَوَّعُ فأرةُ العَطّارِ
المُطعمون الضيفَ حينَ ينوبُهم مِن لَحمِ كُومٍ كالهضاب عِشارِ (نفس المصدر:135)

نختم الكلام بأن المتتبّع لدواوين الشعراء والدارس فيها في هذه الفترة سيجدهم عكوفين على الوطن ويدري بأنهم لم يتغير توقهم وحنينهم إلى وطنهم قيد أنملة.

الهوامش

معنى اللغات والمصطلحات:

1.سقط: منقطع الرمل المستدق من طرفه/ اللّوى: الرمل الملتوي/ الدّخول وحومل: اسما الموضعين/ توضح ومقراه: اسما الموضعين/ لم يعف: لم يمح/ سفحتها: صببتها/ معوّل: معتمد.

2.الجواءَ: اسم بلد في نجد/ فَدَن: القصر/ المتلوّم: المتمكث.

3.ملاوة: فتره قصيرة من زمن/ تصوّرات: تخيّلات/ مس: الجنون/خلس: أخذ في خفة وخفيفة.

4.الصرم بفتح الصاد وضمّها الهجر ضدّ الوصل وقوله فابتكر يريد عجِّل، وقوله إنّما يدهن للقلب الحصر يريد إنما يدهن القلب الحصر فأدخل اللام على القلب للضرورة ويدهن يظهر خلاف ما يضمر أو يلين ويصانع/ عمر ترخيم عمرة والسرّ الخالص الحسن/ قوله يسأل بالشيء الغمر يقول إنّما يسأل عن الشيء الغمر كما قال تعالى وسأل سائل بعذاب أي عن عذاب والغمر من قولهم فلان مغمور أي ليس بمشهور/ قوله إذا أسلم الأبطال عورات الدبر يقول إذا انهزموا؛ يعني إذا انهزم الأبطال فإنّ أخوالي بنوكعب أي معروفون بالنجدة والإقدام/ قوله سبط الكفين تقول فلان سبط الكفين بين السبوطة سخي سمح الكفين، واليوم الخصر الشديد البرد يريد حسان أنّه رُبّ خال لي جواد سمح في وقت الشدة والجدب.

5.تعرقني: أي أخذ ما على عظمي من لحم بأسنانه/ النهس: الأخذ بأطراف الأسنان/ غمزا: أي نخسا وجسا وعصرا/ مستفزًا: من فعل استفزّ إذا استخفّه واستدعاه وأعجزه/ من عزّ بزّ: المقصود به من غلب سلب/ حفزًا: من حفزه أي حثّه وحرّكه وطعنه.

6.الصنو: هو القرين، وهنا بمعنى الشقيق، وهو إمّا أن يكون مفعول أبكي أو مقسم به/ الحرّتان: هي أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار أو قد أرادت هنا مكان بعينها، وربّما كما ناصرة سليم وحرّة واقم/ القزم: صغير الجثة قصير القامة الّذي لا غناء عنده.

7.يحمون الناس ومعتقدهم في دينهم بسيوفهم المشرفية (صناعة الشام) وبالرمح (القنا) المهتزّ (الخطّار)/ قُبّة الجبّار: الكعبة؛ يبذلون نفوسهم رهينة في الحماية لرسول الله (ص) ولبيت الله الحرام/ إذا خوت النجوم:كناية عن انقطاع المطر والجدب، فإذا كان ذلک كانوا هم أهل القِرى والضيافة (المقاري)/ وإذا عادوا من ميدان القتال لاتُشَمُّ من ثيابهم رائحة الدماء أو العرق ولكن رائحة المسک (فأرة العطّار)/ إذا نزل بهم الضيف لم يبخلوا عليه بأفضل وأسمى نياتهم الّتي توازي الهِضاب عُلُوًّا وسُمعةً حتّى المعشّرة منها (الحامل).

النتيجة:

قد كشفت هذه الدراسة عن نتائج متعددة، منها:

1. اتّضح لنا بأنّ الأطلال والدّمن في بدايات العصر الإسلامي قد تبدو في أشعار الشعراء كالقدماء.
2. إنّ الإنسان كان مؤمنًا وواعيًا اشدّ الوعي بقضايا الوطن وأمّته، وهذا الأمر يحرّضه على سبيل تقدّم الوطن بأسباب مختلفة.
3. إنّ الشعراء يميلون في توقهم وحنينهم إلى نزعات واتّجاهات مختلفة، منها الاتّجاه المكاني كحنينهم إلى بلادهم أو الإنساني في الحنين إلى الحبيبة والأشعار الوطنيّة كاستنهاض القوم في سبيل الدفاع عن الوطن، ورثاء الشهداء، والفخر بالقبيلة.
4. هذه الأشعار الوطنية لاتوجد في شعر شعراء هذا العصر فحسب بل ورد مثلها في أشعار الصعاليک الّذين طردوا من القبيلة بدلائل مختلفة.
5. كثيراً ما يلوّن هؤلاء الشعراء حنينهم إلى الوطن بألوان مختلفة من الشعر الوطني كما قلنا وبعض الجوانب الإنسانية مثل الحض على الثورة والكفاح مع الاستبداد وغيرها الّتي توجد في أشعارهم كثيرًا، ولها لوعة كثيرة بحيث القارئ لدواوينهم يتأثّر بها وتجري الدموع من عيونه.

فهرس المصادر

أ) المصادر العربيّة

1. **القرآن الكريم**
2. آذرشب، محمد علي، (1385هـ.ش)، **الأدب العربي وتاريخه حتّى نهاية العصر الأموي**، طهران، سمت، ط1.
3. أبوماضي، إيليا، (د.ت)، **ديوان إيليا أبي ماضي**، حقّقه وضبطه ميرزا زهير، دار العودة.
4. الأبياري، ابراهيم، (1962م)، **الوطن في الأدب العربي**، دار القلم.
5. أبو فراس الحمداني، (د.ت)، **ديوان أبي فراس الحمداني**، تقديم عبّاس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت.
6. أبوتمام، (1944م)، **ديوان أبي تمام**، بيروت، دار الكتب العربي، ط2.
7. أفرام البستاني، فؤاد، (1385هـ.ش)، **المجاني الحديثة** (المجلد1)، طليعة النور.
8. ابن زيدون، (د.ت)، **ديوان ابن زيدون**، شرحه وضبطه عمر فاروق، بيروت، دار القلم للطباعة والنشر.
9. ابن نباتة المصري، (د.ت)، **ديوان ابن نباتة المصري**، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
10. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن المكرم، (1988م)، **لسان العرب** (المجلد3،7،15)، بيروت، دار اللسان العربي.
11. إمرؤ القيس، (د.ت)، **ديوان إمرئ القيس**، ضبطه وصحّحه مصطفي عبد الشافي، بيروت.

12.أنيس، إبراهيم؛ منتصر، عبد الحليم؛ الصوالحي، عطيّة؛ خلف الله أحمد، محمّد، **المعجم المفهرس**، طهران، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ط4.
13.البحتري، (1987م)، **ديوان البحتري** (المجلد1)، شرحه الدكتور يوسف الشيخ محمد، بيروت، دار الكتب العلمية.
14.بدوي، عبده، (1992م)، **قضايا حول الشعر** (المجلد1)، الهيأة المصرية للكتاب.
15.البغدادي، شهاب الدين أبو عبدالله، (1979م)، **معجم البلدان** (المجلد3)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
16.بديوي، أنيس؛ طمّاس، حمدو؛ الطّيبي، حسّان، (2009م)، **روائع الشعر الإسلامي**، بيروت، دار المعرفة.
17.التبريزي، الخطيب، (2004م)، **شرح ديوان عنترة**، بيروت . لبنان، دار الكتاب العربي.
18.جميل بثينة، (1993م)، **ديوان جميل بثينة**، حقّقه محمد ناصر الدين مهدي، دار الكتب العلمية، بيروت.
19.جوزيف، إلياس، (2000م)، **المجاني المصور** (المجلد1)، بيروت، دار المجاني.
20.حسان بن ثابت، (د.ت)، **ديوان حسان بن ثابت**، حقّقه عبدالله مهنّا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2.
21.حفني، عبد الحليم، (1999م)، **شرح لامية العرب الشنفري**، مكتبة الآداب.
22.حوّر، محمّد ابراهيم، (1989م)، **الحنين إلى الوطن حتّى نهاية العصر الأموي**، الإمارات المتحدّة العربية، دار القلم، ط2.
23.الخنساء، (2005م)، **ديوان الخنساء**، شرحه وحقّقه محمد فايز، دار الكتاب العربي، بيروت.
24.الدّقاق، عمر، (1987م)، **شعراء العصبة الأندلسيّة**، بيروت، دار الشرق.
25.داوود، أنس، (1967م)، **التجديد في شعر المهجر**، المؤسّسة المصريّة العامّة للنشر والتأليف.
26.الرازي، محمّد بن أبي بكر، (1995م)، **مختار الصحاح** (المجلّد7)، مكتبة لبنان، الطبعة الجديدة.
27.الريحاني، امين، (1987م)، **القونيات**، بيروت، دار الجيل.
28.الزبيدي، محمّد مرتضي، (1425م)، **تاج العروس من جواهر القاموس** (المجلد2)، بيروت، دار الفكر.
29.زمخشري، جارالله أبو القاسم، (د.ت)، **أساس البلاغة**، بتحقيق عبدالرحيم محمود، د.ط.
30.شوقي، أحمد، (1998م)، **الشوقيات**، شرحه وحقّقها علي العسيلي (المجلد1)، بيروت، منشورات مؤسّسة الأعلمي.
31.ضيف، شوقي، (د.ت)، **دراسات في الشعر العربي المعاصر**، مصر، دار المعارف، ط4.
32. ـ، (1988م)، **فصول في الشعر ونقده**، مصر، دار المعارف، ط2.
33.عبدالله، يحيى، (2005م)، **الاغتراب** (دراسة تحليليّة لشخصيّات الطاهر بن جلّون الروائيّة)، بيروت، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر.
34.الكفراوي، محمد عبد العزيز، (د.ت)، **تاريخ الشعر العربي** (الجزء4)، مصر، دار نهضة.
35.الكوفي البغدادي، محمد بن سهل بن مرزبان (1987م)، **الحنين إلى الأوطان**، تحقيق: جليل العطية، عالم الكتب.
36.مدكور، إبراهيم، (1990م)، **المعجم الوجيز**، ايران . قم، دار الثقافة.

ب) **المصادر الفارسية**

1. أنوشه، حسن، (1376هـ.ش)، **دانشنامه ادبى فارسى** (ج2)، تهران، سازمان چاپ وانتشارات، چاپ1.
2.زنجاني، عباسعلي، (1368هـ.ش)، **وطن وسرزمين من**، تهران، دفتر نشر فرهنگ اسلامي.
3.الفاخوري، حنا؛ الجر، الخليل، (1371هـ.ش)، **تاريخ فلسفه در جهان اسلام**، ترجمه عبد الحميد آيتي، تهران، دار العلم، چاپ4.

ج) **المجلاّت**

1. بيره جكلي، زينب، (2006م)، **الوطن في ديوان سالم المعويس**، مجلّة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، طهران، رقم32، صص410 –440.